قصص جحا

كامل كيلاني

وزة السلطان



قِصَصِ جُحا

كامل كيلاني

وَزّة السُّلطان

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

الْوَزَّةُ الذَّهَبِيَّةُ

١ – سُلْطانُ « خُوارَزْمَ »

لَقِيتُ – فِي بَعْضِ أَسْفارِي – جَماعَةً مِنَ التُّجّارِ .
جَمَعَتْنِي بِهِمُ الْمُصادَفَةُ السَّعِيدَةُ .
لَمْ يَسْبِقْ لِي أَنْ تَعَرَّفْتُ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ .
كانَ مِنْ عَجِيبِ ما فُوجِئْتُ بِهِ : أَنْ سَمِعْتُ اسْمِي يَتَرَدَّدُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فِي أَثْناءِ الْحِوارِ .
حَمِدْتُ اللهَ – سُبْحانَهُ – عَلَى ما أَتاحَ لِي مِنْ فُرْصَةٍ نادِرَةٍ لِلِقائِهِمْ ، وَالِاسْتِماعِ إِلَى حِوارِهِمْ

* * *

كانَ حَدِيثُ التُّجّارِ شائِقًا مُعْجِبًا .
كُنْتُ أُنْصِتُ إِلَيْهِ فِي دَهْشَةٍ وَإِعْجابٍ .
سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَقُولُ : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنَّ « أَبا الْغُصْنِ جُحا » هُوَ أَذْكَى رَجُلٍ فِي هٰذا الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ؟
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنَّهُ قادِرٌ – بِذَكائِهِ – عَلَى أَنْ يَظْفَرَ – وَحْدَهُ – بِوَزَّةِ السُّلْطانِ ؟ »

قُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبًا :
« ماذا تَعْنِي بِوَزَّةِ السُّلْطانِ ؟ وَما قِصَّتُها ؟ »
قالَ مَدْهُوشًا : « ما أَعْجَبَ شَأْنَكَ !
أَلَمْ تَسْمَعْ بِقِصَّةِ الْوَزَّةِ الذَّهَبِيَّةِ ، الَّتِي ذاعَ صِيتُها فِي كُلِّ مَكانٍ ؟ مِنْ أَيِّ الْبِلادِ أَنْتَ ؟ »
قُلْتُ : « مِنَ الْكُوفَةِ . »
قالَ : « لَعَلَّ أَخْبارَ « الْوَزَّةِ الذَّهَبِيَّةِ » لَمْ تَصِلْ إِلَيْكَ ، وَإِنْ شَغَلَتْنا وَشَغَلَتْ غَيْرَنا مِنَ النّاسِ زَمَنًا طَوِيلًا ! »
قُلْتُ : « ما أَشْوَقَنِي إِلَى تَعَرُّفِها ، وَسَماعِ أَخْبارِها . »
قالَ : « وَرِثَ السُّلْطانُ « سُلَيْمانُ » – فِيما وَرِثَ مِنْ أَبِيهِ السُّلْطانِ « كَنْعانَ » : مَلِكِ « خُورازْمَ » وَما جاوَرَها مِنَ الْبُلْدانِ – وَزَّةً ذَهَبِيَّةً ، جَمِيلَةَ الشَّكْلِ ، بَدِيعَةَ الصُّنْعِ .
كانَتْ – فِي الْحَقِّ – طُرْفَةً ، تَفَنَّنَ صاحِبُها فِي صُنْعِها :
حَلّاها بِالْيَواقِيتِ الثَّمِينَةِ ، وَالْحِجارَةِ الْكَرِيمَةِ .
رَكَّبَ لَها عَيْنَيْنِ مِنْ أَنْفَسِ اللَّآلِئِ النّادِرَةِ .
لَعَلَّ السُّلْطانَ أَرادَ أَنْ يَخْتَبِرَ ذَكاءَ النّاسِ ؟
لَعَلَّهُ أَرادَ أَنْ يُداعِبَهُمْ !

مَنْ يَدْرِى ؟

رُبَّما أَرادَ السُّخْرِيَةَ مِمَّنْ عُرِفَ مِنْ بَيْنِهِمْ بِالْكَذِبِ .

أَذاعَ السُّلْطانُ أَنَّهُ سَيُكافِئُ بِهٰذِهِ الْوَزَّةِ أَوَّلَ مَنْ يَرْوِى لَهُ قِصَّةً كاذِبَةً ؛ عَلَى شَرِيطَةٍ واحِدَةٍ ، هِيَ أَنْ يَضْطَرَّهُ إِلَى تَكْذِيبِهِ .

٢ – الْمُتَكاذِبُونَ

اِسْتَهانَ النَّاسُ بِهٰذِهِ الشَّرِيطَةِ .

تَهافَتَ الرُّواةُ والْقُصَّاصُ عَلَى السُّلْطانِ ، مِنْ كُلِّ مَكانٍ .

اِنْطَلَقُوا يُسْمِعُونَهُ أَكْذَبَ الْأَخْبارِ .

خابَ سَعْيُهُمْ . رَجَعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا .

كانَتْ جَماعَتُنا فِي جُمْلَةِ الْوافِدِينَ عَلَيْهِ .

اِفْتَنَّ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا – فِي الْكَذِبِ – ما وَسِعَهُ الِافْتِنانُ .

كانَ السُّلْطانُ ماكِرًا ذَكِيًّا .

لَمْ يُكَذِّبْنا فِيما ادَّعَيْناهُ

* * *

شاقَنِي ما سَمِعْتُ . اِلْتَفَتُّ إِلَى جَماعَةِ التُّجَّارِ مَدْهُوشًا .

قُلْتُ لَهُمْ مُتَعَجِّلًا سَماعَ قِصَّتِهِمْ مَعَ السُّلْطانِ :

« خَبِّرُونِي بِرَبِّكُمْ : ماذا قَصَصْتُمْ عَلَيْهِ ؟ »

٣ – فِي رَأْسِ جَمَلٍ

قالَ الْكَذَّابُ الْأَوَّلُ :

« زَعَمْتُ لِلسُّلْطانِ أَنَّنِي كُنْتُ راكِبًا جَمَلِي – فِي الصَّحْراءِ – ذاتَ يَوْمٍ

طالَ بِيَ السَّفَرُ . . .

شَعَرْتُ بِالْجُوعِ .

بَحَثْتُ عَنْ شَيْءٍ آكُلُهُ .

لَمْ أَجِدْ غَيْرَ تَمْرَةٍ[١] واحِدَةٍ .

أَكَلْتُ التَّمْرَةَ .

رَمَيْتُ نَواتَها .

وَقَعَتِ النَّواةُ عَلَى رَأْسِ الْجَمَلِ .

شَدَّ ما أَدْهَشَنِي أَنْ رَأَيْتُها تَغُوصُ فِي رَأْسِ الْجَمَلِ .

رَأَيْتُها تَنْبُتُ فِي الْحالِ .

رَأَيْتُها تُصْبِحُ – بَعْدَ لَحْظَةٍ واحِدَةٍ – نَخْلَةً طَوِيلَةً ، ذاهِبَةً فِي الْجَوِّ .

رُحْتُ أَتَسَلَّقُ النَّخْلَةَ .

(١) بلحة .

ما إنْ وَصَلْتُ إِلَى أَعْلاها ، حَتَّى رَأَيْتُها تُثْمِرُ رُطَبًا :
رُطَبًا لَذِيذَ الطَّعْمِ .

ظَلِلْتُ آكُلُ الْبَلَحَ ، وَأَرْمِي بِنَواهُ إِلَى الأَرْضِ .

سُرْعانَ ما رَأَيْتُ النَّوَى يُنْبِتُ نَخِيلًا عالِيًا مُثْمِرًا .

سُرْعانَ ما امْتَلأَتِ الصَّحْراءُ نَخْلًا ، جَنِيَّ الثَّمَرِ . »

* * *

صَمَتَ الْقاصُّ .

لَمْ يَلْبَثْ أَنِ اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قائِلًا :

« لَمْ أَنْتَهِ مِنْ هٰذِهِ الْقِصَّةِ الْمُخْتَلَقَةِ الْمُفْتَراةِ ، حَتَّى أَيْقَنْتُ أَنَّ السُّلْطانَ سَيَغْضَبُ مِمَّا سَمِعَ مِنَ التَّلْفِيقِ والْبُهْتانِ .

لَمْ يُساوِرْنِي شَكٌّ فِي أَنَّهُ سَيَصْرُخُ فِي وَجْهِي مُكَذِّبًا إِيَّايَ .

بِذٰلِكَ أَسْتَحِقُّ الْوَزَّةَ الذَّهَبِيَّةَ ، مُكافَأَةً لِي عَلَى هٰذِهِ الْقِصَّةِ الْكاذِبَةِ .

شَدَّ ما خابَ ظَنِّي !

لَمْ يُكَذِّبْنِي السُّلْطانُ فِيما قُلْتُ .



لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنِ ابْتَسَمَ - فِي وَجْهِي - قائِلًا :

« هٰذِهِ قِصَّةٌ ، مُحْتَمَلَةُ الْوُقُوعِ .

مِنَ الْجائِزِ أَنْ يَكُونَ ما رَوَيْتَهُ لِي صَحِيحًا ! »

٤ — الْخياطُ والحسَّابُ

اِلْتفتَ الْحاضِرُونَ إِلَى التَّاجِرِ الثَّانِى مُسائِلِينَ :

« خبِّرْنا . ماذا زَعَمْتَ لِلسُّلْطانِ ! »

قالَ : « أَخْبَرْتُهُ أَنَّنِي خَيَّاطٌ بارِعٌ .

رَوَيْتُ لَهُ أَنَّنِي شَهِدْتُ السَّحابَ ـ بِالْأَمْسِ ـ مَشْقُوقًا :

صَعِدْتُ إِلَى أَعْلَى الْجَبَلِ لِكَىْ أَرْفُوَهُ : أَرَدْتُ أَنْ أَصِلَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ .

ظَلِلْتُ أَخِيطُ جَوانِبَ السَّحابِ ، كَما أَخِيطُ الثَّوْبَ إِذا انْشَقَّ .

لَمْ يَلْبَثِ السَّحابُ الْمُتَقَطِّعُ أَنْ عادَ ، كَما كانَ ! »

* * *

اِلْتفتَ إِلَيْنا مُحَدِّثُنا مَدْهُوشًا ، يُسائِلُنا : « أَتَعْرِفُونَ : ماذا قالَ السُّلْطانُ ؟ نَظَرَ إِلَىَّ باسِمًا ، قالَ لِي مُداعِبًا(١) :

« عَلِمْتُ صِدْقَ حَدِيثِكَ مُنْذُ أَمْسِ ! أَتَعْرِفُ لِماذا ؟

رَأَيْتُ السَّحابَ يَجْتَمِعُ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّقَ .

لٰكِنَّكَ نَسِيتَ أَنْ تَرْفُوَ الْجانِبَ الشَّمالِيَّ مِنْهُ .

لَعَلَّكَ عَجَزْتَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ .

لَكَ الْعُذْرُ فِي ذٰلِكَ . كانَ عَلَى مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ الْجَبَلِ . »

(١) ممازحا .

٥ — السَّهْمُ والْغزالُ

اِلْتفتَ الْحاضِرُونَ إِلَى الثَّالِثِ مُسائِلِينَ :

« خبِّرْنا ، ماذا قُلْتَ لِلسُّلْطانِ ؟ »

قالَ : « زَعَمْتُ أَنِّى صَيَّادٌ ماهِرٌ .

زَعَمْتُ أَنِّى رَأَيْتُ ـ فِي إِحْدَى الصَّحارَى ـ غَزالًا شارِدًا .

صَوَّبْتُ إِلَى الْغزالِ سَهْمًا لِاصْطِيادِهِ .

أَطْلَقْتُ السَّهْمَ عَلَى الْغزالِ الشَّارِدِ .

رَأَى الْغزالُ السَّهْمَ مُنْطَلِقًا إِلَيْهِ .

ما كانَ أَعْجَبَ ما صَنَعَ ؟

اِنْحَرَفَ الْغزالُ عَنِ السَّهْمِ لِيَتَفاداهُ .

جَرَى الْغزالُ يَمِينًا .

اِنْحَرَفَ السَّهْمُ بَعْدَ انْطِلاقِهِ : اِرْتَدَّ السَّهْمُ ناحِيَةَ الْغزالِ .

اِنْحَرَفَ الْغزالُ عَنِ السَّهْمِ لِيَتَفاداهُ .

اِنْحَرَفَ السَّهْمُ فِي الْحالِ .

اِرْتَدَّ السَّهْمُ ناحِيَةَ الْغزالِ .

أَصَرَّ الْغزالُ عَلَى النَّجاةِ ، مُتَشَبِّثًا بِالْحَياةِ .

أَرادَ أَنْ يَهْرُبَ مِنَ الْقَضاءِ .

قَفَزَ فِي الْفَضاءِ .

اِرْتَفَعَ إِلَيْهِ السَّهْمُ فِي الْحالِ .

هَبَطَ الْغَزالُ إِلَى الْأَرْضِ .

هَبَطَ السَّهْمُ مَعَ الْغَزالِ .

عَبَثًا حاوَلَ التَّشَبُّثَ بِالْحَياةِ .

أَسْرَعَ السَّهْمُ إِلَى قَلْبِ الْغَزالِ . قَتَلَهُ لِلْحالِ .

أَدْرَكَهُ الْأَجَلُ فَلَمْ تُكْتَبْ لَهُ النَّجاةُ . »

* * *

صَمَتَ مُحَدِّثُنا لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَ :

« أَتَعْرِفُونَ ماذا فَعَلَ السُّلْطانُ !

اِلْتَفَتَ إِلَيَّ ساخِرًا ، وَقالَ :

« لَيْسَتْ هٰذِهِ الْقِصَّةُ بِأَعْجَبَ مِمَّا رَواهُ لِي أَحَدُ الْوافِدِينَ عَلَيَّ ، مُنْذُ أَيَّامٍ .

أَتَدْرِي ماذا قِصَّةُ مُحَدِّثِي ؟

كانَ أَبْرَعَ مِنْكَ وَأَمْهَرَ ، وَأَعْرَفَ بِفُنُونِ الْحِيلَةِ وَأَشْطَرَ !



أَطْلَقَ سَهْمَهُ عَلَى أَحَدِ الْغِزْلانِ ذاتَ يَوْمٍ .

رَأَى الْغَزالُ السَّهْمَ مُسْرِعًا إِلَيْهِ .

رَأَى السَّهْمَ يُوشِكُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِ .

ظَهَرَ الْخَوْفُ عَلَى وَجْهِ الْغَزالِ .

دَمَعَتْ عَيْناهُ فِي الْحالِ .

* * *

رَأَى الصَّيَّادُ دُمُوعَ التَّاعِسِ الْمِسْكِينِ

تَأَلَّمَ الصَّيَّادُ لِلْبائِسِ الْحَزِينِ .

دَبَّتِ الرَّحْمَةُ إِلَى قَلْبِ الرَّجُلِ .

اِشْتَدَّ بِهِ النَّدَمُ عَلَى ما فَعَلَ .

أَسْرَعَ الصَّيَّادُ إِلَى السَّهْمِ بَعْدَ انْطِلاقِهِ

لَمْ يَيْأَسْ مِنْ لَحاقِهِ .

كانَ الصَّيَّادُ عَدَّاءً ماهِرًا .

لَمْ يَلْبَثِ الصَّيَّادُ أَنْ أَدْرَكَ السَّهْمَ .

أَعادَ الصَّيَّادُ السَّهْمَ إِلَى كِنانَتِهِ[1] .

اِسْتَرَدَّ الصَّيَّادُ سَهْمَهُ ، قَبْلَ أَنْ يَقْتُلَ الْغَزالَ .

فَرِحَ الصَّيَّادُ بِما كُتِبَ لَهُ مِنَ التَّوْفِيقِ .

هٰكَذا تَمَّتْ لِلْغَزالِ النَّجاةُ ، قَبْلَ أَنْ يُفارِقَ الْحَياةَ ! »

* * *

(١) الجعبة التى تودع فيها النبال .

٦ — الْبَقَرَةُ وَالْعَقْرَبُ

اِلْتَفَتَ الْحاضِرُونَ إِلَى الرَّابِعِ يُسائِلُونَهُ :

« خَبِّرْنا : ماذا قُلْتَ لِلسُّلْطانِ ؟ »

قالَ : « ذَهَبْتُ - أَيُّها الصِّحابُ - إِلَى السُّلْطانِ « سُلَيْمانَ » .

قَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةً ، خُلاصَتُها : أَنَّ لِي أَخًا بارِعًا فِي التَّصْوِيرِ .

بَلَغَ مِنْ بَراعَةِ أَخِي - فِي هٰذا الْفَنِّ - مَبْلَغًا لا يَخْطُرُ بِالْبالِ .

ذاتَ مَرَّةٍ تَفَنَّنَ أَخِي فِي رَسْمِ بَقَرَةٍ عَلَى حائِطِ دارِنا .

لَمْ يَزَلْ أَخِي يَتَأَنَّقُ فِي رَسْمِها ، وَيُبْدِعُ فِي تَصْوِيرِها ، حَتَّى دَبَّتْ فِيها الْحَياةُ ، وَأَصْبَحَتْ حَقِيقَةً ماثِلَةً لا شَكَّ فِيها وَلا مِراءَ

رُحْنا نُقَدِّمُ لَها الْعَلَفَ كُلَّ يَوْمٍ

لَمْ يَمْضِ عَلَى الْبَقَرَةِ زَمَنٌ يَسِيرٌ ، حَتَّى وَلَدَتْ عِجْلًا ظَرِيفًا !

لَمْ نَزَلْ - إِلَى الْيَوْمِ - نَحْلُبُ لَبَنَ الْبَقَرَةِ ، وَنَصْنَعُ مِنْهُ الْجُبْنَ وَالزُّبْدَةَ ، وَالْقِشْدَةَ ! »

* * *

أَقْبَلَ عَلَيْنا مُحَدِّثُنا مُسائِلًا :

« أَتَعْرِفُونَ كَيْفَ قابَلَ السُّلْطانُ أُكْذُوبَتِي ؟

قابَلَها بِالِابْتِسامِ وَالسُّخْرِيَةِ . اِلْتَفَتَ إِلَيَّ مُتَهَكِّمًا ، وَقالَ :

ما أَعْجَبَ ما تَتَشابَهُ الْحَوادِثُ !

سَتَنْدَهِشُ - بِلا رَيْبٍ - إِذا قُلْتُ لَكَ إِنَّ قِصَّتَكَ الطَّرِيفَةَ أَعادَتْ إِلَى ذاكِرَتِى ما حَدَّثَنِى بِهِ أَحَدُ الْوافِدِينَ عَلَىَّ .

أَتَعْرِفُ بِماذا أَخْبَرَنِى .

أَخْبَرَنِى أَنَّهُ رَسَمَ عَلَى الْحائِطِ - ذاتَ يَوْمٍ - عَقْرَبًا كَبِيرَةً .

بَلَغَ مِنْ بَراعَةِ صاحِبِنا فِى الرَّسْمِ أَنْ أَصْبَحَتِ الصُّورَةُ حَقِيقَةً راهِنَةً .

لَسَعَ الْعَقْرَبُ أَحَدَ زائِرِيهِ . لَدَغَتْهُ الْعَقْرَبُ لَدْغَةً قاتِلَةً .

ماتَ الزّائِرُ عَلَى إِثْرِها ، مُتَأَثِّرًا بِما نَفَثَتْهُ فِى جِسْمِهِ مِنْ سُمِّها .

أَلَيْسَ هٰذا شَبِيهَ ما حَدَّثْتَنِى بِهِ ، أَيُّها الصّادِقُ الْأَمِينُ ؟! »

* * *

صَمَتَ السُّلْطانُ لَحْظَةً .

لَمْ يَلْبَثْ أَنِ اسْتَأْنَفَ ما بَدَأَهُ مِنْ حَدِيثٍ .

قالَ السُّلْطانُ : « رُبَّما شاقَكَ أَنْ تَسْمَعَ ما حَدَّثَنِى بِهِ رَسّامٌ آخَرُ ، لا يَقِلُّ بَراعَةً عَنْ صاحِبِكَ وَعَنْ أَخِيكَ .

اِسْتَطاعَ هٰذا الرَّسّامُ الْمُبْدِعُ الْعَبْقَرِىُّ أَنْ يُبْدِعَ - فِى مَرْسَمِهِ - صُورَةَ نَسْرٍ كَبِيرٍ .

أَتَدْرِى ماذا حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ ؟

أَصْبَحَتِ الصُّورَةُ الْمَرْسُومَةُ طائِرًا حَيًّا .

لَمْ يَسْتَقِرَّ النَّسْرُ - فِى مَرْسَمِ الْمُصَوِّرِ - غَيْرَ لَحَظاتٍ .

سُرْعانَ ما أَسْلَمَ جَناحَيْهِ لِلْهَواءِ .

ظَلَّ النَّسْرُ يُحَلِّقُ فِى الْفَضاءِ ، حَتَّى غابَ عَنِ الْأَنْظارِ . »

٧ — فِى الْهَـواءِ

اِلْتَفَتَ الْحاضِرُونَ إِلَى الْخامِسِ ، مُسائِلِيهِ عَمّا حَدَثَ .

قالَ التّاجِرُ : « لَمْ يَكُنْ حَظِّى بِأَسْعَدَ مِنْ حَظِّكُمْ !

رَوَيْتُ لِلسُّلْطانِ الْقِصَّةَ التّالِيَةَ :

كُنْتُ مُنْذُ أُسْبُوعَيْنِ ، مَعَ جَماعَةٍ مِنْ كِبارِ التُّجّارِ عَلَى ظَهْرِ مَرْكَبٍ كَبِيرٍ .

كانَتِ الرِّحْلَةُ - فِى أَوَّلِها - مُمْتِعَةً هانِئَةً

كانَ الْبَحْرُ هادِئًا ساكِنًا .

فِى بَدْءِ الرِّحْلَةِ ، حالَفَنا التَّوْفِيقُ لَيالِىَ وَأَيّامًا .

كانَ النَّسِيمُ الْعَلِيلُ يَهُبُّ عَلَيْنا ، فَيُنْعِشُنا ، وَيَمْلَأُ نُفُوسَنا سَعادَةً وَبَهْجَةً .

ظَلِلْنا كَذٰلِكَ بِضْعَةَ أَيّامٍ . . .

تبدَّلَتِ الحالُ فجأةً .

هبَّتْ علَيْنا رِيحٌ شدِيدةٌ عاتِيةٌ . ثارَتْ عواصِفُ هُوجٌ .

اِضْطَرَبَ البَحْرُ ، علَتْ أمْواجُهُ .

خُيِّلَ إلَيْنا أنَّها جِبالٌ صاعِدةٌ إلى السَّماءِ .

ظلَّتِ العاصِفةُ تُنذِرُنا بِالهلاكِ والغرقِ ، بَيْنَ لحظةٍ وأُخْرى .

بَعْدَ قليلٍ ، غمَرَتْنا موْجةٌ عاتِيةٌ .

اِبتلَعَتِ المرْكَبَ بِما يحتَوِيهِ . أغْرَقَتْ جمِيعَ راكِبِيهِ .

كِدْتُ أغْرَقُ معَ الغارِقِينَ ، وأهْلِكُ معَ الهالِكِينَ .

رأيْتُ ـ لِحُسْنِ حظِّي ـ حِصانًا مُسْرَجًا ، مُلْجَمًا مُطَهَّمًا(١) .

كانَ الحِصانُ لِتاجِرٍ مِنْ رِفاقِي المُغْرَقِينَ .

لَمْ أُضِعِ الفُرْصةَ المُواتِيةَ .

أسْرَعْتُ إلَى الحِصانِ وهُوَ على ظَهْرِ المرْكَبِ .

رَكِبْتُهُ فِي الحالِ . سُرْعانَ ما قفزَ الحِصانُ إلَى البَحْرِ .

كانَ الحِصانُ ـ لِحُسْنِ حظِّي ـ ماهِرًا فِي العَوْمِ .

لَمْ أسْتقِرَّ علَى ظَهْرِ الحِصانِ ، حتَّى رأيْتُ طائِفةً مِنَ السَّمَكِ والحِيتانِ ، خارِجةً مِنْ قاعِ البَحْرِ .

(١) تامّ الحسن .

شدَّ ما فزَّعَنِي أنْ رأيْتُها مُنْدَفِعةً إلَيَّ ، تُرِيدُ أنْ تبْتلِعَنِي !

لَمْ تُذْهِلْنِي المُفاجأةُ .

أسْرَعْتُ إلَى سَوْطٍ كانَ فِي سَرْجِ الحِصانِ .

أمْسَكْتُ بِالسَّوْطِ فِي الحالِ .

اِنْدَفَعْتُ أضْرِبُ بِهِ السَّمَكَ والحِيتانَ ، ضَرَباتٍ مُوجِعاتٍ .

ظَلِلْتُ أصْرُخُ صَرَخاتٍ مُدَوِّياتٍ .

تفزَّعَ السَّمَكُ والحِيتانُ . لاذَتْ بِالهَرَبِ .

فزَّعَها صَوْتِي . أوْجَعَها سَوْطِي !

نَجَوْتُ ـ بِحَمْدِ اللهِ ـ مِنَ السَّمَكِ . نَجَوْتُ مِنَ الحِيتانِ .

اِبْتَهَجَتْ نَفْسِي بِهذِهِ النَّتِيجةِ .

حَسِبْتُنِي أمِنْتُ مِنَ الخَطَرِ . شَدَّ ما وَهِمْتُ . خابَ ما أمَّلْتُ .

سُرْعانَ ما رأيْتُ موْجةً عاتِيةً ، تنْدَفِعُ إلَيَّ مُسْرِعةً .

كادَتِ المَوْجةُ تبْتلِعُ الحِصانَ وتبْتلِعُنِي معَهُ .

أقْبلَتْ موْجةٌ أُخْرَى .

كانَتِ المَوْجةُ التَّالِيةُ أشَدَّ ـ مِنْ سابِقَتِها ـ وأعْنَفَ .



قَذَفَتْ بِنا الْمَوْجَةُ إِلَى ما فَوْقَ السَّحابِ .

أَطارَتِ الْحِصانَ وَراكِبَهُ إِلَى مَكانٍ بَعِيدٍ .

رَأَيْتُ مَنْظَرًا عَجَبًا : رَأَيْتُ الْحُقُولَ وَالْبُيُوتَ وَالْقُصُورَ

تَبْدُو لِعَيْنَيَّ صَغِيرَةً تَحْتَ قَدَمَيِ الْحِصانِ .

كِدْتُ أَهْلِكُ مِنَ الْخَوْفِ - تَمَنَّيْتُ - حِينَئِذٍ -

لَوْ بَلَعَتْنِي الْأَمْواجُ ، كَما بَلَعَتْ رِفاقِيَ الْمُغْرَقِينَ

لٰكِنَّ لُطْفَ اللهِ تَدارَكَنِي .

رَأَيْتُ الْفَرَسَ يَهْبِطُ - مِنَ الْعُلُوِّ الشّاهِقِ -

فِي رِفْقٍ وَأَناةٍ .

لَمْ يَلْبَثِ الْفَرَسُ أَنِ اسْتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ سالِمًا .

حَمْدًا لِلّٰهِ عَلَى خَفِيِّ أَلْطافِهِ .

شاءَتْ رَحْمَةُ اللهِ أَنْ تَكْتُبَ لِيَ النَّجاةَ ، بَعْدَ أَنْ

يَئِسْتُ مِنَ الْحَياةِ . »

* * *

الْتَفَتَ التّاجِرُ إِلَيْنا قائِلًا :

« أَتَعْرِفُونَ أَيُّها الصِّحابُ : كَيْفَ تَلَقَّى السُّلْطانُ

هٰذِهِ الْأُكْذُوبَةَ الضَّخْمَةَ ؟

تَلَقّاها بِالِاسْتِخْفافِ ، قابَلَها بِالِابْتِسامِ .

تَظاهَرَ بِتَصْدِيقِ ما قُلْتُ . لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ قالَ :

« عِنايَةُ اللهِ أَنْقَذَتْكَ . رَحْمَةُ اللهِ خَلَّصَتْكَ .

لَوْلا أَلْطافُ اللهِ ، كُنْتَ - يا صاحِبِي - مِنَ الْهالِكِينَ . »

٨ — الْجِسْمُ الْمَقْلُوبُ

اشْتَدَّ عَجَبُ الْحاضِرِينَ مِمَّا سَمِعُوا .

سَأَلُوا سادِسَهُمْ عَمَّا زَعَمَهُ لِلسُّلْطانِ . قالَ :

« لَمْ أَكُنْ أَسْعَدَ مِنْكُمْ حَظًّا مَعَ السُّلْطانِ

إِلَيْكُمْ ما قَصَصْتُهُ عَلَيْهِ : قُلْتُ لِلسُّلْطانِ :

لَقِيَنِي ، أَيُّها السُّلْطانُ الْعَظِيمُ - صَباحَ أَمْسِ - كَلْبٌ ضَخْمُ الْجُثَّةِ ، كَبِيرُ الْحَجْمِ . تَحَرَّشَ الْكَلْبُ بِي .

عَرَفْتُ مِنْ نَظَراتِ الْكَلْبِ الْغاضِبَةِ أَنَّهُ يَهُمُّ بِافْتِراسِي .

أَسْرَعْتُ إِلَى الْكَلْبِ فِي حَماسَةٍ وَغَضَبٍ .

عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُلَقِّنَ الْكَلْبَ دَرْسًا قاسِيًا ، جَزاءَ تَهَجُّمِهِ عَلَيَّ

بادَرْتُ الْكَلْبَ بِلَكْمَةٍ عَنِيفَةٍ كانَتْ - فِي الْحَقِّ - لَكْمَةً قاتِلَةً

ما كانَ أَعْجَبَ ما حَدَثَ !

رَأْسُ الْكَلْبِ دَخَلَ فِي جِسْمِهِ ، حَتَّى أَصْبَحَ ذَيْلُ الْكَلْبِ مَكانَ رَأْسِهِ ، وَرَأْسُهُ مَكانَ ذَيْلِهِ ؛ كَأَنَّما قَلَبْتَ جَوْرَبًا !

انْقَلَبَ عُواءُ الْكَلْبِ . أَصْبَحَ يَصِيحُ : وَهْ . وَهْ ، بَعْدَ أَنْ كانَ يَصِيحُ : هَوْ . . هَوْ ! »

* * *

أَتَعْرِفُونَ ماذا صَنَعَ السُّلْطانُ ؟

الْتَفَتَ إِلَيَّ باسِمًا قالَ : « خَبِّرْنِي ماذا صَنَعْتَ بِالْكَلْبِ بَعْدَ ذٰلِكَ ، أَيُّها الْفارِسُ الشُّجاعُ ! »

قُلْتُ لَهُ باسِمًا : « تَرَكْتُهُ كَما هُوَ !

عُدْتُ إِلَى بَيْتِي مُبْتَهِجًا بِما فَعَلْتُ . »

نَظَرَ إِلَى السُّلْطانُ ساخِرًا . قالَ :

« لا رَيْبَ أَنَّكَ شَدِيدُ الْقَسْوَةِ .

كَيْفَ انْتُزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِكَ الصَّلْدِ ؟

ما كانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تُعِيدَ جِسْمَ الْكَلْبِ كَما كانَ ؛ حَتَّى لا يُقاسِيَ - مِنَ الْعَذابِ - أَكْثَرَ مِمَّا قاساهُ ! »

وَقَفْتُ مَبْهُوتًا . لَمْ أَدْرِ كَيْفَ أُجِيبُ !

٩ — صِراعُ الْأَسَدَيْنِ

اسْتَأْنَفَ السُّلْطانُ حَدِيثَهُ السّاخِرَ قائِلًا :

« ذَكَّرَنِي صَنِيعُكَ هٰذا ، بِقِصَّةٍ أَقْرَبَ إِلَى ما رَوَيْتَ ، وَأَشْبَهَ بِما فَعَلْتَ .

سَمِعْتُ عَجِيبَةً رَواها لِي أَحَدُ الْوافِدِينَ :

أَخْبَرَنِي أَنَّهُ تاهَ فِي بَعْضِ أَسْفارِهِ .

لَمْ يَلْبَثْ أَنِ اشْتَدَّ بِهِ التَّعَبُ . جَلَسَ يَلْتَمِسُ الرَّاحَةَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ . غَلَبَهُ النَّوْمُ فَنامَ .

بَعْدَ قَلِيلٍ ، انْتَبَهَ - مِنْ نَوْمِهِ - عَلَى أَصْواتٍ عالِيَةٍ مُجَلْجِلَةٍ مُخِيفَةٍ ، كَأَنَّها الرَّعْدُ .

فَتَحَ عَيْنَيْهِ . رَأَى صِراعًا هائِلًا بَيْنَ أَسَدَيْنِ كَبِيرَيْنِ .

كانَ الْأَسَدانِ يَقْتَتِلانِ وَيَصْطَرِعانِ .

اشْتَدَّ بِهِ الْخَوْفُ مِمَّا رَأَى . أَسْرَعَ إِلَى شَجَرَةٍ ضَخْمَةٍ عالِيَةٍ . اخْتَبَأَ بَيْنَ أَغْصانِها الْمُشْتَبِكَةِ .

ظَلَّ يَرْقُبُ ذٰلِكَ الْمَشْهَدَ الْمَرْهُوبَ .

رَأَى الصِّراعَ بَيْنَ الْأَسَدَيْنِ يَشْتَدُّ .

انْتَهَى قِتالُهُما نِهايَةً لا تَخْطُرُ لِأَحَدٍ عَلَى بالٍ :

كانَ خِتامَ الْمَأْساةِ أَنْ يَفْتَرِسَ كِلاهُما صاحِبَهُ .

أَبَيا أَنْ يَقِفا عِنْدَ هٰذا الْحَدِّ . واصَلا نِضالَهُما فِي قَسْوَةٍ وَعُنْفٍ . انْدَفَعَ كِلاهُما إِلَى صاحِبِهِ يَنْهَشُهُ .

ظَلَّ كِلاهُما - عَلَى هٰذِهِ الْحالِ - حَتَّى أَكَلَ لَحْمَ صاحِبِهِ وَعَظْمَهُ وَجِلْدَهُ . لَمْ يَبْقَ مِنَ الْأَسَدَيْنِ غَيْرُ ذَيْلَيْنِ ! »

هٰكَذا تَكاذَبْنا فَغَلَبَنِي السُّلْطانُ .

وَهٰكَذا خَرَجْتُ خاسِرًا مِنَ الْمَيْدانِ ! »

١٠ - راكِبُ الْأَسَدِ

الْتَفَتَ الْحاضِرُونَ إِلَى السَّابِعِ ، يَسْأَلُونَهُ عَمَّا زَعَمَهُ لِلسُّلْطانِ .

أَجابَهُمُ السَّابِعُ قائِلًا :

« بَدَأْتُ حَدِيثِي مَعَ السُّلْطانِ ، قائِلًا :

كانَتْ قِصَّتِي - يا سُلْطانَ الزَّمانِ - أَعْجَبَ ما سَمِعَ إِنْسانٌ ! !

ما أَظُنُّ مِثْلَها وَقَعَ لِأَحَدٍ قَبْلِي .

ما أَظُنُّهُ يَقَعُ لِأَحَدٍ بَعْدِي .

قِصَّةٌ تَكادُ لا تُصَدَّقُ لِغَرابَتِها .

لٰكِنَّها بِرَغْمِ ذٰلِكَ ، حَقِيقَةٌ واقِعَةٌ ، لا شَكَّ فِي صِدْقِها :

كُنْتُ - فِي صَباحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ - أَمْشِي عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ عالٍ . لاحَ لِي أَسَدٌ مِنْ بَعِيدٍ .

رَأَيْتُ الْأَسَدَ يَجْرِي مُنْدَفِعًا إِلَيَّ .

عَيْناهُ تَكادانِ تَلْتَهِبانِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ ، أَوْ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ .

لَسْتُ أَعْرِفُ لِثَوْرَتِهِ سَبَبًا ، عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ .

اِشْتَدَّ بِيَ الْخَوْفُ مِمَّا رَأَيْتُ . لَجَأْتُ إِلَى الْفِرارِ .

أَسْرَعْتُ إِلَى مَغارَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ .

اِنْدَفَعَ الْأَسَدُ يُرِيدُ افْتِراسِي .

أَسْرَعَ الْأَسَدُ إِلَى الْمَغارَةِ ، باحِثًا عَنِّي .

اِنْتَهَزْتُ غَفْلَةً مِنَ الْأَسَدِ . قَفَزْتُ عَلَى ظَهْرِهِ فَجْأَةً .

لَمْ أَسْتَقِرَّ عَلَى ظَهْرِهِ ، حَتَّى قَفَزَ قَفْزَةً هائِلَةً .

ما أَعْجَبَ ما رَأَيْتُ !

سَقَطَ الْأَسَدُ مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ إِلَى أَسْفَلِهِ .

وَقَعَ الْأَسَدُ - لِحُسْنِ حَظِّي - عَلَى ظَهْرِ فِيلٍ .

كانَ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ . لَوْ لَمْ يَسْقُطِ الاسَدُ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ لَهَلَكَ الْأَسَدُ ، وَهَلَكْتُ مَعَهُ ، وَلَقِيَ كِلانا مَصْرَعَهُ .

حَمْدًا لِلّهِ عَلَى خَفِيِّ أَلْطافِهِ . لَمْ أُصَبْ بِسُوءٍ .

* * *

دَهِشَ الْفِيلُ مِنْ هَوْلِ الْمُفاجَأَةِ .

تَمَلَّكَهُ الرُّعْبُ مِمَّا حَدَثَ .

اِنْدَفَعَ الْفِيلُ يَجْرِي

خائِفًا مُسْرِعًا ..

الْفِيلُ يَجْرِي ..

الْأَسَدُ فَوْقَ الْفِيلِ ..

وَأَنا فَوْقَ الْأَسَدِ !



كانَ الْفِيلُ يَجْرِى بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ .
اِنْتَهَى بِهِ الْجَرْىُ إِلَى هَضْبَةٍ عالِيَةٍ .
كانَتِ الْهَضْبَةُ مُشْرِفَةً عَلَى شاطِئِ الْبَحْرِ .
اِنْدَفَعَ الْفِيلُ بِقُوَّةٍ .
هَوَى مِنْ أَعْلَى الْهَضْبَةِ .
وَقَعْنا جَمِيعًا فِى الْبَحْرِ
أَصْبَحْنا تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَمْواجِ الثَّائِرَةِ .
لَمْ أَدْرِ مَصِيرَ الْأَسَدِ ، وَلا مَصِيرَ الْفِيلِ .
بَعْدَ قَلِيلٍ ، عَرَفْتُ أَنَّهُما لَقِيا هَلاكَهُما فِى قاعِ الْبَحْرِ .
أَيْقَنْتُ - حِينَ تَقاذَفَتْنِىَ الْأَمْواجُ - أَنَّ آخِرَتِى دَنَتْ ، وَحَياتِىَ انْتَهَتْ . تَمَلَّكَنِىَ الْخَوْفُ . كادَ يَسْتَوْلِى عَلَىَّ الذُّهُولُ . اِشْتَدَّتْ بِىَ الْحَيْرَةُ . لَمْ أَدْرِ كَيْفَ نَجَوْتُ ..
دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُفَرِّجَ كُرْبَتِى ، وَيَكْشِفَ عَنِّى غُمَّتِى ، وَيُخَلِّصَنِى مِنْ ضائِقَتِى .
اِسْتَجابَ اللهُ دُعائِى .
حَقَّقَ - بِكَرَمِهِ - رَجائِى .
تَدارَكَنِى بِرَحْمَتِهِ . أَسْعَفَنِى بِلُطْفِهِ وَعِنايَتِهِ



لَوْلا ذٰلِكَ كانَ مَصِيرِى مِثْلَ مَصِيرِ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ .
لَمْ أَلْبَثْ أَنْ سَمِعْتُ أَصْواتًا تُنادِينِى بِلِسانٍ عَرَبِىٍّ فَصِيحٍ :
«لا تَخَفْ - يا صاحِ - وَلا تَحْزَنْ . لَنْ يُصِيبَكَ - فِى جِوارِنا - سُوءٌ ، إِنْ شاءَ اللهُ .»
فَتَحْتُ عَيْنَىَّ . ما أَعْجَبَ ما شَهِدْتُ !
رَأَيْتُ جَماعَةً مِنْ بَناتِ الْبَحْرِ مُقْبِلاتٍ عَلَىَّ ، مُتَوَدِّداتٍ إِلَىَّ .
أَسْرَعَتْ إِحْداهُنَّ لِتُنْقِذَنِى مِنَ الْغَرَقِ .
مَدَّتْ ذِراعَها لِتُخَلِّصَنِى مِنَ الْهَلاكِ . حَمَلَتْنِى - سالِمًا - إِلَى قَصْرِ مَلِيكَتِهِنَّ الْعَجُوزِ ، فِى قاعِ الْبَحْرِ : حَيْثُ تَسْكُنُ هِىَ وَبَناتُها .
أَسْرَعَتِ الْمَلِكَةُ وَبَناتُها إِلَىَّ مُرَحِّباتٍ بِلِقائِى ، مُهَنِّئاتٍ بِسَلامَتِى . بَذَلْنَ جُهُودَهُنَّ فِى تَأْمِينِى .

ذَهَبَ الْخَوْفُ عَنِّي ، عاوَدَنِي الْأَمَلُ بَعْدَ الْيَأْسِ .

أَمْضَيْتُ ـ فِي جِوارِهِنَّ ـ أَيَّامًا سَعِيدَةً ، لا أَنْساها ما حَيِيتُ !

شاهَدْتُ ـ فِي قاعِ الْبَحْرِ ـ ما لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ عَلَى بالٍ !

* * *

ذاتَ مَرَّةٍ : كُنْتُ ذاهِبًا إِلَى قَصْرِ الْمَلِكَةِ .

رَأَيْتُ أَمامِي طَرِيقًا مُعَبَّدَةً ، أَرْضُها مَفْرُوشَةٌ بِالرَّمْلِ الْأَبْيَضِ .

رَأَيْتُها تَنْتَهِي إِلَى طَرِيقٍ ثانِيَةٍ ، مَفْرُوشَةٍ بِالرَّمْلِ الْأَصْفَرِ .

أَسْلَمَتْنا إِلَى طَرِيقٍ ثالِثَةٍ ، مَفْرُوشَةٍ بِالرَّمْلِ الرَّمادِيِّ .

رَأَيْتُ ـ عَلَى جانِبَيِ الطَّرِيقِ ـ أَشْجارًا صَغِيرَةً ، وَنَباتاتٍ بَدِيعَةً ، لا عَهْدَ لَنا ـ نَحْنُ الْأَناسِيَّ ـ بِمِثْلِها .

اِشْتَدَّ عَجَبِي حِينَ رَأَيْتُ الْأَشْجارَ مُحَمَّلَةً بِأَلْوانٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ التُّفَّاحِ وَالرُّمَّانِ وَالْمِشْمِشِ وَالْكُمَّثْرَى ، وَغَيْرِها مِنَ الْفَواكِهِ الْأُخْرَى . كانَتْ كُلُّها مِنَ الذَّهَبِ الْخالِصِ .

كانَتِ النَّباتاتُ مُحَمَّلَةً بِأَزْهارٍ بَدِيعَةٍ ، مِنْ أَنْفَسِ الْيَواقِيتِ وَاللَّآلِئِ وَالْعَقِيقِ وَالْمَرْجانِ ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنَ الْأَحْجارِ الْكَرِيمَةِ النَّادِرَةِ .

رَأَيْتُ أَنْواعَ السَّمَكِ الصَّغِيرَةَ فِي قاعِ الْبَحْرِ .

كانَتْ تَنْطَلِقُ بَيْنَ فُرُوعِ الْأَشْجارِ .

عادَ إِلَى ذاكِرَتِي ما كُنْتُ أَراهُ مِنْ طَيَرانِ الْعَصافِيرِ بَيْنَ الْغُصُونِ ، حِينَ يَسْتَوْلِي عَلَيْها النَّشاطُ وَالْمَرَحُ ؛ فَتَنْطَلِقُ مُسْرِعَةً كَما تَنْطَلِقُ السِّهامُ مِنْ أَقْواسِها .



رَأَيْتُ الْقُصُورَ الَّتِي تَسْكُنُها بَناتُ الْبَحْرِ .

ما كانَ أَعْجَبَها !

جُدْرانُها مِنَ الْأَحْجارِ الْكَرِيمَةِ .

سُقُوفُها مِنَ الْمَرْجانِ

نَوافِذُها مِنَ الْكَهْرَمانِ

سُطُوحُها مِنَ الْمَرْمَرِ

شَهِدْتُ عَلَى رَأْسِ مَلِكَةِ الْبَحْرِ تاجًا نَفِيسًا ، مُرَصَّعًا بِأَثْمَنِ الْيَواقِيتِ وَاللَّآلِئِ .

ما أَحْسَبُ أَنَّ لَهُ مَثِيلًا فِي خَزائِنِ الْمُلُوكِ .

قَضَيْتُ فِي هٰذا الْجَوِّ الْبَهِيجِ زَمَنًا طَوِيلًا .

ما كانَ أَبْهَجَهُ عَهْدًا .

مَرَّ - عَلَى طُولِهِ - كَأَنَّهُ لَحَظاتٌ .

أَلِفْتُ الْعَوْمَ مَعَ بَناتِ الْبَحْرِ : عَلَى سَطْحِ الْماءِ تارَةً ، وَفِي أَعْماقِ الْبَحْرِ تاراتٍ أُخْرَى .

كَثِيرًا ما شاهَدْتُ جِبالًا عالِيَةً مِنَ الثَّلْجِ ، تَصْدِمُ الْمَراكِبَ والسُّفُنَ ، فَتُغْرِقُها بِمَنْ فِيها جَمِيعًا .

عَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى الْبَقاءِ فِي ضِيافَةِ بَناتِ الْبَحْرِ ..

* * *

لَمْ يَلْبَثِ الْحَنِينُ أَنْ عاوَدَنِي إِلَى وَطَنِي .

سُرْعانَ ما تَمَلَّكَنِي الضَّجَرُ .

لَمْ أَسْتَطِعِ الْبَقاءَ أَكْثَرَ مِمَّا بَقِيتُ .

اِسْتَأْذَنْتُ بَناتِ الْبَحْرِ وَمَلِيكَتَهُنَّ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى دارِي .

عَبَثًا حاوَلْنَ أَنْ يَسْتَبْقِينَنِي مَعَهُنَّ .

قَبِلْنَ رَجائِي عَلَى كُرْهٍ مِنْهُنَّ .

حَمَّلْنَنِي كَثِيرًا مِنَ الْهَدايا النَّفِيسَةِ .

عَزَمْتُ عَلَى الصُّعُودِ إِلَى الْبَرِّ .

ما أَنْسَ لا أَنْسَ ما حَدَثَ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ .

كُنْتُ أَمْشِي فِي قاعِ الْبَحْرِ . لَقِيَنِي تِمْساحٌ كَبِيرٌ .

ضَرَبَنِي التِّمْساحُ بِذَيْلِهِ ضَرْبَةً هائِلَةً .

قَذَفَنِي بِضَرْبَتِهِ إِلَى شاطِئِ الْبَحْرِ .

ضاعَتِ اللَّآلِئُ مِنِّي .

قَنِعْتُ بِالسَّلامَةِ . حَمِدْتُ اللهَ عَلَى نَجاتِي . لَمْ أَحْزَنْ عَلَى الثَّرْوَةِ الضَّائِعَةِ . »

* * *

أَتَعْرِفُونَ كَيْفَ قالَ السُّلْطانُ ؟

اِلْتَفَتَ إِلَى مُهَنَّا .

أَجابَنِي باسِمًا :

« شَدَّ ما حالَفَكَ الْحَظُّ السَّعِيدُ !

هَنِيئًا لَكَ ما كَسَبْتَ .

ما أَجْدَرَكَ أَنْ تَحْمَدَ اللهَ عَلَى نَجاتِكَ مِنَ الْمَوْتِ مَرَّتَيْنِ .

لَوْ حَدَثَ هٰذا لِغَيْرِكَ ، لَكانَ مِنَ الْهالِكِينَ . »

١١ — ناطِحُ السَّحابِ

الْتَفَتَ الْحاضِرُونَ إِلَى الثّامِنِ ، يَسْأَلُونَهُ عَمّا صَنَعَ .

أَنْشَأَ الْقاصُّ يَقُولُ : « لَمْ أَكُنْ أَوْفَرَ حَظًّا مِنْكُمْ .

حالَفَنِي الْإِخْفاقُ ، كَما حالَفَكُمْ .

* * *

بَدَأْتُ قِصَّتِي ، قائِلًا :

« كانَ أَبِي - أَيُّها السُّلْطانُ الْعَظِيمُ - عِمْلاقًا هائِلًا !

كانَ - لِطُولِ قامَتِهِ ، وارْتِفاعِ هامَتِهِ(١) - مَضْرِبَ الْمَثَلِ .

بَلَغَ - فِي طُولِهِ - حَدًّا لا يُصَدِّقُهُ أَحَدٌ إِذا سَمِعَهُ ، وَلا يَتَصَوَّرُهُ إِلَّا إِذا رَآهُ .

إِذا مَدَّ يَدَهُ وَهُوَ جالِسٌ ، أَمْكَنَهُ أَنْ يُمْسِكَ بِها النَّسْرَ ، وَهُوَ طائِرٌ فِي الْجَوِّ .

إِذا مَشَى - فِي طَرِيقِهِ - تَعَثَّرَتْ قَدَماهُ بِالنَّخْلِ الْعالِي ، وَمَسَّ رَأْسَهُ السَّحابُ .

لا عَجَبَ إِذا أَطْلَقَ النّاسُ عَلَيْهِ لَقَبَ : ناطِحِ السَّحابِ ! »

* * *

(١) علو رأسه .

أَتَعْرِفُونَ - أَيُّها الصِّحابُ - بِماذا أَجابَنِي السُّلْطانُ ؟

رَبَّتَ كَتِفِي ، مُتَظاهِرًا بِتَصْدِيقِ ما سَمِعَ .

لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ سَأَلَنِي فِي ابْتِسامٍ ساخِرٍ :

« خَبِّرْنِي ، أَيُّها الصّادِقُ الْأَمِينُ :

هَلْ كانَ أَبُوكَ يَشْعُرُ - إِذا مَشَى - بِأَنَّ شَيْئًا لَيِّنًا ناعِمَ الْمَلْمَسِ ؛ أَشْبَهَ بِالْمِنْفَضَةِ النّاعِمَةِ الشَّعْرِ ، يَمَسُّ رَأْسَهُ مِنْ فَوْقِ السَّحابِ ! »

قُلْتُ لَهُ ، دُونَ أَنْ أَفْطُنَ إِلَى حِيلَتِهِ ، وَأُدْرِكَ حَقِيقَةَ ما يُرِيدُ :

« أَذْكُرُ أَنَّهُ أَخْبَرَنِي - قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ - بِشَيْءٍ قَرِيبٍ مِنْ ذٰلِكَ . »

قالَ السُّلْطانُ : « أَلا تَعْرِفُ ذٰلِكَ الشَّيْءَ اللَّيِّنَ الَّذِي كانَ يَلْمُسُ رَأْسَ أَبِيكَ مِنْ فَوْقِ السَّحابِ ؟ »

قُلْتُ : « لَسْتُ أَعْرِفُهُ .

ما أَظُنُّ أَنَّ أَبِي كانَ يَعْرِفُهُ .

لَوْ عَرَفَهُ لَأَخْبَرَنِي بِهِ . »

* * *

قالَ لِيَ السُّلْطانُ ، فِي لَهْجَةِ الْمُتَهَكِّمِ السّاخِرِ :

« جاءَنِي – مُنْذُ أَيّامٍ – بَعْضُ إِخْوانِكَ الْمُحَدِّثِينَ ، مِنَ الرُّواةِ الْمُبْدِعِينَ .

قَصَّ عَلَيَّ أَنَّ أَباهُ كانَ أَطْوَلَ مِنْ أَبِيكَ قامَةً ، وَأَرْفَعَ هامَةً(١) .

كانَ أَبُوهُ – إِذا مَشَى – يَصِلُ السَّحابُ إِلَى كَتِفَيْهِ .

كانَتْ لِحْيَتُهُ مُفْرِطَةً فِي الطُّولِ .

كانَتْ لِحْيَتُهُ تَتَدَلَّى حَتَّى تَمَسَّ السَّحابَ .

* * *

الْآنَ عَرَفْتُ أَنَّ كِلَيْكُما صادِقٌ فِي حِكايَتِهِ ، أَمِينٌ فِي رِوايَتِهِ .

الْآنَ ثَبَتَ لِي – حِينَ قابَلْتُ بَيْنَ قِصَّتِكَ وَقِصَّتِهِ – أَنَّ ذٰلِكَ الشَّيْءَ اللَّيِّنَ الَّذِي كانَ يَلْمُسُ رَأْسَ أَبِيكَ : « ناطِحِ السَّحابِ » لَمْ يَكُنْ – فِي الْحَقِيقَةِ – إِلَّا خُصْلَةً مِنَ الشَّعْرِ الطَّوِيلِ ، الَّذِي كانَ يَتَدَلَّى مِنْ لِحْيَةِ أَبِيهِ ! »

---

(١) أعلى رأسا .

١٢ – غابَةٌ تَحْتَرِقُ

قالَ التّاسِعُ :

« أَمّا أَنا ، فَقُلْتُ لِلسُّلْطانِ :

خَرَجْتُ – ذاتَ يَوْمٍ – أَصِيدُ الْغِزْلانَ عَلَى فَرَسٍ كَرِيمٍ لا يَسْبِقُهُ سابِقٌ ، وَلا يُدْرِكُهُ لاحِقٌ .

لاحَ لِعَيْنِي غَزالٌ شارِدٌ فِي الْفَلاةِ . وَجَّهْتُ إِلَيْهِ فَرَسِي .

ما إِنْ دانَيْتُهُ حَتَّى اسْتَخْفَى فِي غابَةٍ قَرِيبَةٍ .

هَمَمْتُ بِالرُّجُوعِ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ

* * *

فُوجِئْتُ بِأَسَدٍ هائِلٍ فَتّاكٍ . رَأَيْتُهُ يَعْتَرِضُ طَرِيقِي ، وَيَهُمُّ بِافْتِراسِي . امْتَلَأَ قَلْبِي رُعْبًا

اسْتَوْلَى الْخَوْفُ عَلَى حِصانِي ، كَما اسْتَوْلَى عَلَى قَلْبِي .

ضَرَبَ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً شَدِيدَةً .

اصْطَدَمَتْ نَعْلُهُ بِصَخْرَةٍ صُلْبَةٍ .

تَطايَرَتْ شَرارَةٌ مِنَ الصَّخْرَةِ الصُّلْبَةِ إِلَى شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ .

سُرْعانَ ما اشْتَعَلَتِ النّارُ فِي الشَّجَرَةِ .

انْتَقَلَتِ النّارُ مِنَ الشَّجَرَةِ إِلَى غَيْرِها .

سُرْعانَ ما انْتَقَلَتِ النّارُ إِلى شَجَرَةٍ ثالِثَةٍ وَرابِعَةٍ ، وَهٰكَذا ..
خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الْغابَةَ - كُلَّها - تَحْتَرِقُ .

* * *

تَفَزَّعَ الأَسَدُ مِمّا رَأى !
اِشْتَغَلَ عَنّي بِالْحَريقِ
حاوَلَ الأَسَدُ أَنْ يَهْرُبَ .
لٰكِنَّ النّارَ أَدْرَكَتْهُ وَأَحْرَقَتْهُ .
كانَ فَرَسي أَشْجَعَ مِنَ الأَسَدِ .
لَمْ يَسْتَسْلِمْ لِلْخَوْفِ ؛ لَمْ يَطِرْ قَلْبُهُ شَعاعًا
قَفَزَ قَفْزَةً عالِيَةً أَنْقَذَتْنا مِنَ الْخَطَرِ وَأَخْرَجَتْنا مِنَ الْغابَةِ .
خَشيتُ أَنْ تَلْتَهِمَ النّارُ الْغابَةَ بِكُلِّ ما تَحْويهِ
مِنْ حَيَوانٍ وَأَشْجارٍ .
عَبَثًا حاوَلْتُ أَنْ أُخْمِدَ النّارَ .
كَأَنَّما أَدْرَكَ حِصاني ما أُريدُ .
أَسْرَعَ الْفَرَسُ إِلى جَبَلٍ عالٍ قَريبٍ .
ظَلَّ يُصَعِّدُ بي - في الْجَبَلِ - حَتّى بَلَغَ قِمَّتَهُ .
رَأَيْتُ السَّحابَ تَحْتَ أَقْدامِنا .

رَأَيْتُ الْفَرَسَ يُسْرِعُ إِلَى السُّحُبِ الْمُتَراكِمَةِ .
ظَلَّ الْفَرَسُ يَخْتَرِقُها .
لَمْ يَكُفَّ عَنْ ضَرْبِها بِأَقْدامِهِ ، كَما يَفْعَلُ مَنْ يَعُومُ فِي الْماءِ .
رَأَيْتُ السُّحُبَ الْكَثيفَةَ تَتَشَقَّقُ ، وَتُفْرِغُ ما فيها
مِنَ الْماءِ عَلَى أَشْجارِ الْغابَةِ .
أَدْرَكْتُ غَرَضَ الْفَرَسِ .
لَمْ تَمُرَّ فَتْرَةٌ قَصيرَةٌ حَتَّى أَطْفَأَتِ الأَمْطارُ النّارَ .
عادَ الْفَرَسُ بي إِلَى الْغابَةِ .
رَأَيْتُ أَعْجَبَ ما رَأَيْتُ : رَأَيْتُ الأَسَدَ ، وَإِلى جانِبِهِ الْغَزالَ .
شَوَتْهُما النّارُ . أَنْضَجَتْ لَحْمَهُما .
فَتَّتَتْ عِظامَهُما ، ثُمَّ أَذابَتْهُ . اِشْتَدَّ بِيَ الْجُوعُ .
أَكَلْتُ لَحْمَهُما وَعِظامَهُما جَميعًا . لَمْ أُبْقِ - مِنْهُما - بَقِيَّةً .
لَسْتُ أَذْكُرُ أَنّي أَكَلْتُ - طُولَ عُمْري - أَشْهى
مِنْ هٰذا الطَّعامِ ! »

* * *

أَتَعْرِفُونَ : كَيْفَ قالَ السُّلْطانُ ؟
اِلْتَفَتَ إِلَيَّ ، مُعَقِّبًا عَلى ما سَمِعَ

قالَ لِي ، فِي لَهْجَةِ السّاخِرِ الْعابِثِ :

« فاتَكَ ، أَيُّها الذَّكِيُّ ـ لَوْ عَلِمْتَ ـ خَيْرٌ كَثِيرٌ .

كانَ غَيْرُكَ أَوْفَرَ مِنْكَ حَظًّا ، وَأَنْجَحَ سَعْيًا !

* * *

أَخْبَرَنِي أَحَدُ الْوافِدِينَ عَلَيَّ : أَنَّه رَأَى فِي الْغابَةِ أَسْرابًا مِنَ الْمَها(١) ، وَمِئاتٍ مِنَ الْغِزْلانِ الْمَشْوِيَّةِ ، كَما رَأَى طائِفَةً كَبِيرَةً مِنَ الْأَوْعالِ(٢) ، والنُّمُورَةِ والْأُسُودِ والْأَفْيالِ ، بَعْدَ أَنْ أَحْرَقَتِ النّارُ بَعْضَها ، وَخَنَقَ الدُّخانُ ما بَقِيَ مِنْها .

كانَ صاحِبُكَ أَذْكَى مِنْكَ رَأْيًا ، وَأَبْعَدَ نَظَرًا .

كانَ أَعْرَفَ بِالْفائِدَةِ وَأَخْبَرَ ، وَأَعْرَفَ بِطَرائِقِ الْفائِدَةِ وَأَبْصَرَ . لَمْ يُضِعِ الْفُرْصَةَ كَما أَضَعْتَها .

أَسْرَعَ الذَّكِيُّ إِلَى انْتِهازِها .

باعَ مِنْ شِوائِها(٣) ما اسْتَطاعَ .

اسْتَوْلَى عَلَى كُوماتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَنْيابِ الْفِيَلَةِ .

تَهافَتَ تُجّارُ الْعاجِ عَلَى شِرائِها .

رَبِحَ ـ مِنْ بَيْعِها ـ ثَرْوَةً طائِلَةً . »

(١) جماعات من الأبقار الوحشية .

(٢) تيوس الجبال . (٣) لحمها المشوى .

١٣ ـ جَبَلُ الثَّلْجِ

الْتَفَتَ الحاضِرُونَ إِلَى الْعاشِرِ ، يَسْأَلُونَهُ عَمّا صَنَعَ .

قالَ : « إِلَيْكُمْ ما زَعَمْتُهُ لِلسُّلْطانِ .

بَدَأْتُ أُطْرُوفَتِي ـ أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ أُكْذُوبَتِي ـ قائِلًا :

كُنْتُ مُسافِرًا ذاتَ يَوْمٍ . تُهْتُ فِي الطَّرِيقِ .

يَئِسْتُ مِنَ الْعَوْدَةِ . تَرَكْتُ لِلْفَرَسِ أَنْ يَمْشِيَ ، كَما يَشاءُ .

انْطَلَقَ الْفَرَسُ يَمْشِي عَلَى غَيْرِ هُدًى .

لَمْ يَلْبَثِ الْفَرَسُ أَنْ وَصَلَ إِلَى مَكانٍ مُقْفِرٍ فَسِيحٍ .

كانَ بَرْدُ الشِّتاءِ شَدِيدًا ، لا يُحْتَمَلُ .

تَرَجَّلْتُ عَنِ الْفَرَسِ ، وَمَشَيْتُ . بَحَثْتُ حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَى وَتِدٍ صَغِيرٍ . شَدَدْتُ الحِصانَ إِلَى الْوَتِدِ . جَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْفَرَسِ .

أَسْلَمْتُ جَفْنَيَّ لِلنَّوْمِ . اسْتَيْقَظْتُ ـ فِي الضُّحَى ـ عَلَى صَهِيلِ الْفَرَسِ . تَلَفَّتُّ ، فَلَمْ أَجِدِ الْفَرَسَ :

رَأَيْتُ أَمامِي ـ فِي الْمَكانِ الْقَفْرِ ـ مَسْجِدًا وَبُيُوتًا .

رَفَعْتُ بَصَرِي إِلَى السَّماءِ : رَأَيْتُ عَجَبًا !

رَأَيْتُ الْفَرَسَ مَشْدُودًا إِلَى مِئْذَنَةِ الْمَسْجِدِ ! ..

لَمْ أَلْبَثْ أَنْ عَرَفْتُ الْحَقِيقَةَ :

كانَ يُغَطِّي ذٰلِكَ الْفَضاءَ جَبَلٌ مِنَ الثَّلْجِ .

لَمْ يَكُنِ الْوَتِدُ ـ عَلَى الْحَقِيقَةِ ـ مُثَبَّتًا فِي الْأَرْضِ .

كانَ الْوَتِدُ مُثَبَّتًا فِي رَأْسِ مِئْذَنَةِ مَسْجِدِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ .

كَثُرَ الثَّلْجُ : تَجَمَّعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، حَتَّى أَصْبَحَ جَبَلًا عالِيًا ؛ غَطَّى الْمَسْجِدَ وَالْمِئْذَنَةَ جَمِيعًا .

فِي الصَّباحِ طَلَعَتِ الشَّمْسُ . أَذابَتْ جَبَلَ الثَّلْجِ .

كَشَفَتِ الْمَسْجِدَ وَالْمِئْذَنَةَ وَما حَوْلَهُما مِنَ الْبُيُوتِ .

أَرَدْتُ أَنْ أُخَلِّصَ فَرَسِي رَمَيْتُ الْحَبْلَ الْمَشْدُودَ فِيهِ بِسَهْمٍ .

اِنْقَطَعَ الْحَبْلُ . نَزَلَ إِلَيَّ الْفَرَسُ سالِمًا .

رَكِبْتُ الْفَرَسَ . عُدْتُ إِلَى بَيْتِي ناجِيًا ! »

١٤ — جِبالُ الْمَطَرِ

قالَ السُّلْطانُ ساخِرًا : « ذَكَّرَتْنِي هٰذِهِ الْقِصَّةُ ، بِقِصَّةٍ أَعْجَبَ مِنْها وَأَغْرَبَ : قِصَّةٍ كُنْتُ سَمِعْتُها مِنْ بَعْضِ الْوافِدِينَ عَلَيَّ .

حَدَّثَنِي صاحِبِي ، قالَ : « هَبَّتْ عَلَى مَرْكَبِي عاصِفَةٌ هائِلَةٌ ـ مِنْ عَواصِفِ الْبَحْرِ ـ فَأَغْرَقَتْهُ .

لَمْ يَنْجُ ـ مِنْ أَصْحابِي ـ إِلَّا الْقَلِيلُ .

كُتِبَتْ لِيَ النَّجاةُ ـ مَعَهُمْ ـ لِحُسْنِ حَظِّي .

كانَ بِالْقُرْبِ مِنّا جَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ ، عامِرَةٌ بِالسُّكّانِ .

ذَهَبْنا إِلَيْها . بَقِينا عامًا أَوْ بَعْضَ عامٍ .

بَيْنا نَحْنُ جالِسُونَ ذاتَ يَوْمٍ ، إِذا بِالسَّماءِ تَتَلَبَّدُ بِالْغُيُومِ ، وَيُدَوِّي الرَّعْدُ ، وَيَبْرُقُ الْبَرْقُ ، ثُمَّ تَظْهَرُ فِي السَّماءِ طَرائِقُ مَنْقُوشَةٌ : بِحُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ وَخُضْرَةٍ ، وَهِيَ الَّتِي نُسَمِّيها : « قَوْسَ الْغَمامِ » أَوْ « قَوْسَ قُزَحَ » .

لَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَأَيْتُ الصَّواعِقَ تَهْوِي عَلَى أَشْجارِ الْجَزِيرَةِ فَتُحْرِقُها .

لَمْ تَلْبَثِ الْجَزِيرَةُ أَنْ تَذُوبَ وَتَسْتَخْفِيَ بِكُلِّ ما تَحْوِيهِ مِنْ بُيُوتٍ وَسُكّانٍ ، وَآدَمِيٍّ وَحَيَوانٍ .

عَرَفْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ لَمْ تَكُنْ ـ فِي الْحَقِيقَةِ ـ إِلّا جَبَلًا مِنَ الثَّلْجِ .

بَقِيَ هٰذا الْجَبَلُ عائِمًا ـ بِالْقُرْبِ مِنْ شاطِئِ الْبَحْرِ ـ أَعْوامًا كَثِيرَةً .

اتَّخَذَهُ بَعْضُ الْمُسافِرِينَ الَّذِينَ انْقَطَعَتْ بِهِمُ السُّبُلُ ، وَطَنًا لَهُمْ .

بَنَوْا عَلَى ظَهْرِهِ بُيُوتَهُمْ ، وَغَرَسُوا حَدائِقَهُمْ وَأَشْجارَهُمْ .

اِحْتَرَقَ الشَّجَرُ . ذابَ الثَّلْجُ .

اِسْتَخْفَتِ الْجَزِيرَةُ ـ كُلُّها ـ فِي الْحالِ .

خُيِّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ ـ لِجَهْلِي ـ أَنَّ الصَّواعِقَ الَّتِي أَحْرَقَتِ الْجَزِيرَةَ وَأَذابَتْها ، قَدْ سَقَطَتْ مِنْ « قَوْسِ قُزَحَ » .

عَزَمْتُ عَلَى كَسْرِ هٰذِهِ الْقَوْسِ . »

هُنا الْتَفَتَ السُّلْطانُ إِلَيَّ قائِلًا : « أَتَعْرِفُ ماذا صَنَعَ صاحِبُكَ ؟

كانَ أَمْهَرَ رَجُلٍ سَمِعْتُ بِهِ فِي حَياتِي : تَعَلَّقَ بِقَطَراتِ الْماءِ الْمُتَحَدِّرَةِ مِنَ السَّماءِ ؛ لِيَكْسِرَ « قَوْسَ قُزَحَ » .

لٰكِنَّهُ ما إِنْ وَصَلَ إِلَى مُنْتَصَفِ الْمَسافَةِ حَتَّى انْقَطَعَ الْمَطَرُ فَجْأَةً : سَقَطَ الرَّجُلُ فِي جُبٍّ عَمِيقٍ .

١٥ — حِبالُ الشَّمْسِ

اِسْتَقَرَّ الرَّجُلُ فِي قاعِ الْجُبِّ .

رَأَى خُيُوطًا طَوِيلَةً مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ تَنْفُذُ إِلَيْهِ مِنْ فُوهَةِ الْجُبِّ ؛ فَيَتَأَلَّفُ مِنْها حَبْلٌ طَوِيلٌ .

قالَ لِنَفْسِهِ : « النّاسُ يُطْلِقُونَ عَلَى هٰذا الضَّوْءِ اسْمَ : « لُعابِ الشَّمْسِ » ، كَما يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اسْمَ : « خَيْطِ باطِلٍ » .

ماذا عَلَيَّ إِذا فَتَلْتُ مِنْ هٰذا الْخَيْطِ حِبالًا ؟ »

بَذَلَ الرَّجُلُ جُهْدَهُ ، حَتَّى وُفِّقَ إِلَى فَتْلِ حَبْلٍ مَتِينٍ مِنْ خُيُوطِ الشَّمْسِ . تَمَّ لَهُ ما أَرادَ . راحَ يَتَسَلَّقُهُ ، حَتَّى بَلَغَ سَطْحَ الْأَرْضِ .

ظَلَّ يُواصِلُ السَّيْرَ أَيّامًا وَلَيالِيَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَلَدِهِ .

حَمِدَ اللهَ عَلَى نَجاتِهِ وَسَلامَتِهِ مِنْ كُلِّ ما تَعَرَّضَ لَهُ مِنَ الْمَهالِكِ وَالْأَخْطارِ . »

الْفَصْلُ الثّانِي

الْكاذِبُ الْحادِي عَشَرَ

١ — فِكْرَةٌ مُوَفَّقَةٌ

كانَتْ لَيْلَةً طَيِّبَةً ، سَمِعْتُ فِيها مِنْ لَطائِفِ الْقِصَصِ وَفُنُونِ الْخَيالِ ، ما لَمْ يَخْطُرْ لِأَحَدٍ عَلَى بالٍ .

لٰكِنَّنِي عَجِبْتُ مِنْ عَجْزِهِمْ - جَمِيعًا - عَنِ الْحُصُولِ عَلَى « وَزَّةِ السُّلْطانِ » بِرَغْمِ ما كانَ لَهُمْ مِنْ ذَكاءٍ بارِعٍ ، وَخَيالٍ رائِعٍ .

لَمْ أَدْرِ : كَيْفَ غابَ عَنْ كُلِّ كَيْذُبانٍ - مِنْ هٰؤُلاءِ الْكَياذِبَةِ الْعَشَرَةِ - أَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوها لا تُحَقِّقُ لَهُمْ مَأْرَبًا ، وَلا تُنِيلُهُمْ مَطْلَبًا .

كِذْبَةُ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ ، لا تَدْعُو السُّلْطانَ إِلَى أَنْ يُنْكِرَها وَيَرْفُضَ قَبُولَها .

لَيْسَ - فِيما سَمِعَهُ السُّلْطانُ مِنْ أَكاذِيبِهِمْ - ما يَضْطَرُّهُ إِلَى الْجَهْرِ بِتَكْذِيبِهِمْ ، وَرَفْضِ مَزاعِمِهِمْ ، وَتَسْفِيهِ أَحْلامِهِمْ .

ماذا يَهُمُّ السُّلْطانَ مِنْ أَباطِيلِهِمْ ! !

أَيُّ شَيْءٍ يَدْفَعُهُ إِلَى إِنْكارِ تُرَّهاتِهِمْ ، وَرَفْضِ أَضالِيلِهِمْ ؛ ما دامَتْ لا تَجْلُبُ لَهُ شَرًّا ، وَلا تُلْحِقُ بِهِ ضَرًّا .

قلت لِنفسى :

« وا عَجَبًا لَهُمْ ! ! أَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ واحِدٍ مِنْهُمْ : أَنَّ السُّلْطانَ لَنْ يَتْرُكَ « الْوَزَّةَ الذَّهَبِيَّةَ » طائِعًا مُخْتارًا ؟

أَلَمْ يَدُرْ بِأَخْلادِهِمْ : أَنَّ السُّلْطانَ لَنْ يَنْزِلَ عَنْ وَزَّتِهِ ، إِلَّا إِذا اُضْطُرَّ - إِلَى ذٰلِكَ - اضْطِرارًا ؟ »

خَطَرَتْ لِي فِكْرَةٌ مُوَفَّقَةٌ سَدِيدَةٌ ، عَرَفْتُ أَنَّها كَفِيلَةٌ بِأَنْ تُرْغِمَ السُّلْطانَ عَلَى تَكْذِيبِي .

مَتَى تَمَّ لِي ذٰلِكَ : ظَفِرْتُ بِـ « وَزَّةِ السُّلْطانِ » ؛ دُونَ مَشَقَّةٍ وَلا عَناءٍ .

٢ — حُلْمُ « جُحا »

حانَ مَوْعِدُ النَّوْمِ .

تَفَرَّقَ الْجَمِيعُ . ذَهَبَ كُلُّ واحِدٍ إِلَى فِراشِهِ .

بِتُّ أُفَكِّرُ طُولَ لَيْلِي .

ظَلِلْتُ أُمَنِّي نَفْسِي بِالْحُصُولِ عَلَى « الْوَزَّةِ الذَّهَبِيَّةِ » .

رَأَيْتُنِي - فِي الْمَنامِ - أَقُصُّ عَلَى السُّلْطانِ قِصَّتِي .

رَأَيْتُنِي : لا أَكادُ أُتِمُّ الْقِصَّةَ ، حَتَّى أَرْجِعَ بِالْوَزَّةِ ، فَرْحانَ ، غانِمًا ! .

اِسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي فِي الصَّباحِ الْباكِرِ .

تَرَكْتُ الْفُنْدُقَ ؛ أَوْفَرَ ما كُنْتُ نَشاطًا ، وَأَسْعَدَ نَفْسًا ، وَأَوْفَرَ أَمَلًا .

ظَلِلْتُ أُواصِلُ السَّيْرَ ؛ حَتَّى بَلَغْتُ عاصِمَةَ الْمُلْكِ ، وَمَقَرَّ السُّلْطانِ .

أَسْرَعْتُ إِلَى سُوقِ الْمَدِينَةِ . اِشْتَرَيْتُ مِنْها جَرَّةً كَبِيرَةً . اِكْتَرَيْتُ(١) بَعْضَ الْحَمّالِينَ ، لِيَحْمِلُوا الْجَرَّةَ .

أَمَرْتُهُمْ أَنْ يَتْبَعُونِي . .

اِنْتَهَى بِنا السَّيْرُ إِلَى قَصْرِ السُّلْطانِ .

اِسْتَأْذَنْتُ فِي الدُّخُولِ .

جاءَ الْإِذْنُ - مِنَ السُّلْطانِ - بِدُخُولِي .

مَثَلْتُ(٢) بَيْنَ يَدَيْهِ .

رَأَى السُّلْطانُ الْجَرَّةَ الْكَبِيرَةَ .

ظَهَرَتْ - عَلَى وَجْهِهِ - عَلاماتُ الدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ ! !

---

(١) استأجرت .

(٢) وقفت .

٤ — قِصَّةُ الْجَرَّةِ

سَأَلَنِي السُّلْطانُ : « لِماذا أَحْضَرْتَ هٰذِهِ الْجَرَّةَ ! »

قُلْتُ لَهُ فِي احْتِرامٍ وَأَدَبٍ : « لِهٰذِهِ الْجَرَّةِ حَدِيثٌ عَجَبٌ !

كانَ أَبِي أَصْدَقَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ، لِوالِدِكُمُ الْعَظِيمِ .

كانَ أَبِي ـ لِحُسْنِ حَظِّهِ ـ مُسْتَشارَ أَبِيكُمْ وَوَزِيرَهُ ، وَنَدِيمَهُ وَسَمِيرَهُ .

لَمْ يَكُنِ السُّلْطانُ الرّاحِلُ ـ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ وَرِضْوانُهُ ـ يَصْنَعُ شَيْئًا ـ جَلَّ أَوْ صَغُرَ ـ إِلّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ بِمَشُورَةِ أَبِي ، وَيَتَعَرَّفَ رَأْيَهُ .

فِي أَواخِرِ عَهْدِهِ الْمُبارَكِ الْمَيْمُونِ ، اشْتَبَكَتِ الْبِلادُ فِي حَرْبٍ طاحِنَةٍ ، مَعَ بَعْضِ الْأَعْداءِ .

كانَ الْأَعْداءُ يَطْمَعُونَ فِي مُلْكِ والِدِكُمُ الْعادِلِ .

كانُوا يَحْسُدُونَهُ عَلَى ما قامَ بِهِ ـ فِي أَنْحاءِ الْمَمْلَكَةِ ـ مِنْ إِصْلاحٍ مُوَفَّقٍ شامِلٍ .

دامَتِ الْحَرْبُ سَنَواتٍ .

انْتَهَتِ الْحَرْبُ بِالْإِفْلاسِ وَالْخَرابِ .

فَرَغَتْ خَزائِنُ الدَّوْلَةِ . نَفِدَتْ ثَرْوَةُ الْبِلادِ .

لَمْ يَبْقَ عِنْدَ السُّلْطانِ ـ شَيْءٌ مِنَ الْمالِ .

كانَتْ هٰذِهِ الْجَرَّةُ مِلْكًا لِأَبِي . وَرِثَها أَبِي مِنْ جَدِّي .

كانَتِ الْجَرَّةُ مَمْلُوءَةً لَآلِئَ وَذَهَبًا .

حَزِنَ أَبِي لَمّا رَأَى الدَّوْلَةَ وَصَلَتْ إِلَى هٰذِهِ الْحالَةِ السَّيِّئَةِ .

خَشِيَ أَبِي أَنْ يَنْتَصِرَ الْأَعْداءُ ، بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مالُ الدَّوْلَةِ .

أَسْرَعَ أَبِي إِلَى الْجَرَّةِ . بادَرَ بِإِفْراغِ ما تَحْتَوِيهِ مِنْ لَآلِئَ وَذَهَبٍ .

تَرَكَ ثَرْوَتَهُ وَدِيعَةً عِنْدَ السُّلْطانِ ، لِيُنْفِقَ مِنْها ما يَشاءُ ؛ حَتّى يَكْسِبَ الْحَرْبَ ، وَيَتِمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَى أَعْدائِهِ .

كانَ الشَّرْطُ بَيْنَهُما أَنْ يَرُدَّ السُّلْطانُ إِلَى أَبِي ما اسْتَعارَهُ مِنْهُ .

وَعَدَهُ السُّلْطانُ أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهِ مِثْلَها لَآلِئَ وَذَهَبًا .

قالَ السُّلْطانُ لِأَبِي : « هَيْهاتَ أَنْ أَنْسَى جَمِيلَكَ . سَأُعِيدُ إِلَيْكَ ثَرْوَتَكَ كامِلَةً . إِذا ماتَ أَحَدُنا ـ أَوْ كِلانا ـ قامَ خَلَفُهُ بِالْوَفاءِ بِالدَّيْنِ لِوَلَدِهِ ، وَرَدِّ الْوَدِيعَةِ إِلَيْهِ . »

أَسْرَعَ الْمَوْتُ إِلَيْهِما مَعًا ، ذَهَبا إِلَى جِوارِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ جَمِيعًا .

ازْدَهَرَتِ الثَّرْوَةُ فِي عَهْدِكُمُ الزّاهِرِ ، نَمَتْ[١] خَزائِنُ الدَّوْلَةِ : فاضَتْ بِالْمالِ ؛ بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَها الْفَوْزُ عَلَى أَعْدائِها . جِئْتُ ـ الْيَوْمَ ـ أَطْلُبُ الدَّيْنَ ، راجِيًا أَنْ تَأْذَنُوا لِي بِرَدِّ الْوَدِيعَةِ فِي الْحالِ . »

(١) كَثُرَتْ .

٥ – تَحْقِيقُ الرُّؤْيا

ما إِنْ بَلَغْتُ – مِنْ قِصَّتِي – هٰذا الْمَدَى ، حَتَّى تَحَقَّقَ ما رَأَيْتُهُ فِي الْمَنامِ ، مِنْ صادِقِ الْأَحْلامِ !



اِسْتَوْلَى الْغَضَبُ عَلَى السُّلْطانِ .

صَرَخَ – فِي وَجْهِي – قائِلًا :

« ما رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْ جُرْأَتِكَ ، وَلا سَمِعْتُ أَكْذَبَ مِنْ قِصَّتِكَ !! »

صَدَقَ ما أَمَّلْتُ . صَحَّ ما تَوَقَّعْتُ . قُلْتُ لَهُ فَرْحانَ مُبْتَهِجًا : « الْآنَ . اُعْتَرَفَ السُّلْطانُ ، بِأَنَّ قِصَّتِي كاذِبَةٌ ! أَلا يَرانِي – بِذٰلِكَ – اُسْتَحْقَقْتُ الْوَزَّةَ ! »

اِبْتَسَمَ السُّلْطانُ . أُعْجِبَ بِوَسِيلَتِي(١) ، وَحُسْنِ حِيلَتِي . مَنَحَنِي « الْوَزَّةَ الذَّهَبِيَّةَ » . عُدْتُ بِها – إِلَى بَلَدِي – شاكِرًا مَسْرُورًا .

(١) طريقتي .

الشركـة التـونسيـة للتـوزيـع
5 شـارع قـرطـاج – تـونس